

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الزقازيق
كلية الآداب



الزمان والمكان والإنسان والسرديات

نموذج سرديات المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي
(ضمن بحوث المحور الرابع)

مبحث من إعداد

أ.د. رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
عميد كلية الآداب جامعة الزقازيق سابقاً
مؤسس معهد الدراسات الآسيوية جامعة الزقازيق
المشرف على كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة قناة السويس
من ١٩٩٤ - ٢٠٠١ م

المؤتمر الدولي الأول
السرديات في الأدب والعلوم الإنسانية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة قناة السويس
٢٩ - ٣١ مارس ٢٠٠٨ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

السرد في التاريخ يعنى تسجيل الأحداث التاريخية وتعاقبها سنة بعد أخرى ، في المكان والزمان المحدد ، فماذا يعنى التاريخ ؟
معنى التاريخ :

" التاريخ دراسة للتطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ، أياً كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته " .

في ضوء هذا التعريف الموجز لعلم التاريخ، نستطيع أن نستزیده تفصيلاً وتوضيحاً، فذكر البعض أن كلمة التاريخ تعني مجموعة الحوادث التي ظهرت وسوف تظهر^(١) في حياة البشرية ، كما أنها تعني الإلمام بتلك الأحداث ، وأن الكلمة "استوريا Historia" يونانية الأصل تدل جذورها على معنى الرؤية ، حيث أن كلمة " أستور Histor" تعني الرؤية والمشاهدة ، أو الاستقصاء بقصد المعرفة^(٢).

ويذكر البعض الآخر أن التاريخ يشتمل على المعلومات التي يمكن معرفتها عن نشأة الكون كله بما يحويه من أجرام وكواكب ، ومن بينها الأرض وما جرى على سطحها من حوادث الإنسان ، من أمثال ذلك نجد المؤرخ الإنجليزي هـ .ج . ويلز Herbert George Wells يبدأ كتابه المسمى "موجز تاريخ العالم" بدراسة نشأة الكون والأرض، وما ظهر على سطحها من مظاهر الحياة المختلفة^(٣).

ويذكر البعض الثالث أن كلمة التاريخ لفظ عربي خالص ، يعنى الإعلام بالوقت ، ومن هنا ظهرت كلمات التاريخ والتورخ^(٤)، وإن كان هناك من يعتقد أن الكلمة – أي كلمة التاريخ – فارسية الأصل ، وأن العرب أخذوها عن الفرس ، وعلى العموم فإن التاريخ يعنى لغوياً التوقيت أي تحديد زمن الأحداث وأوقات حدوثها^(٥) .

ويذكر البعض الرابع أن التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية ، أو هو العلم الخاص بالجهود البشرية ، أو هو المحاولة التي تستهدف الإجابة على الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي ، وتستشف منها جهود المستقبل . فالتاريخ يتناول الأمة من الأمم

(١) يعنى بأن ما سيظهر من أحداث مرتبط بما سبق ، وهذا أساس النظرة الحديثة المستقبلية

دراسة التاريخ المعروفة باسم Futurology .

(٢) د . إسحاق عبيد : معرفة الماضي ، ص ١ .

(٣) د . حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، ص ١١ .

(٤) التاريخ History ، والتاريخ كفاعلية فكرية Historiography .

(٥) د . شوقي الجمل : علم التاريخ ، ص ٨ .

بالتنقيب في طوايا فكرها ، ومدى ارتباط ذلك الفكر بالدنيا والحياة ، ثم اتصاله بسيرة الإنسان في الأرض وجهوده المتصلة لرفع شأنه اقتصادياً وعلمياً وفكرياً ، ومدى ارتباط ماضي الأمم بحاضرها ، وحاضرها بمستقبلها^(١).

وقد بدأ التاريخ يظهر إلى حيز الوجود في صورة بدائية أولية ، منذ أخذ الإنسان البدائي من فجر المدنية يقص على أبنائه قصص أسلافه ممتزجة بأساطيره ومعتقداته ، وقد أخذ التعبير عن التاريخ يتدرج مختلطاً بالفن كالرسم والنقش على الحجر ، ومع تطور الحضارة أخذ التاريخ يشكل أساساً جوهرياً في تسجيل موكب البشرية الخامل .

وهذا يعني أن التاريخ هو المرآة أو السجل أو الكتاب الشامل الذي يقدم لنا ألواناً من الأحداث وفنوناً من الأفكار وصنوفاً من الأعمال والآثار ، وأن التاريخ يتخذ مجراه على يد الإنسان بطريق مباشر وفي ظروف معينة ، والإنسان ابن الماضي ، بل هو ثمرة الخلق كله منذ أزمان سحيقة والعلاقة وطيدة بين حياة الفرد ، وبين الحياة في القرون والعصور الماضية^(٢).

ويذكر آخرون أن معنى التاريخ يكمن في أن الماضي ، الذي يبحث فيه المؤرخ ليس ماضياً ميتاً ، ولكنه ماضٍ في بعض الاعتبارات مازال حياً في الحاضر ، وإن كان الفعل أو الحدث الماضي يعتبر ميتاً ، فإن ذلك الماضي سيظل دون معنى عند المؤرخ ما لم يستطع المؤرخ أن يدرك ويفهم الأفكار التي وراء هذا الحدث ، وعلى هذا يمكن القول أن كل التاريخ هو تاريخ الفكر^(٣) .

ويذكر آخرون أيضاً أن التاريخ يعني دراسة الأحداث ، أو هو الأحداث نفسها ، والأحداث جمع حادث ، والحادث من وجهة نظر المؤرخ كل ما يطرأ من تغير على حياة البشر ، وكل ما يطرأ من تغير على الأرض في الكون متصلاً بحياة البشر ، والحادث قد يكون مفاجئاً كوقوع زلزال يهدم المدن والقرى ، وقد يكون عنيفاً مثل قيام حرب ، وقد يكون بطيئاً كعمليات التطور البطيئة التي لا يفتن الإنسان إلى حدوثها ، إلا على المدى الطويل ، مثال تطور المرأة العربية وخروجها من عزلة البيت إلى الحياة العامة ، فهذه عملية طويلة بدأت من أواخر القرن التاسع عشر ، ولا زالت مستمرة إلى اليوم ، وهي في

(١) ألبان ويدجري (مترجم) : التاريخ وكيف يفسرونه .. تعليق المترجم .

(٢) د . حسن عثمان : المرجع السابق ، ص ١٢ - ١٣ .

(٣) Carr. E.H. : What is Hisstory. P. 22

مجموعها حادث تاريخي خطير بعيد المدى ، وقد يقع الحادث دون أن يفطن إليه أحد ، ثم تتجلى خطورته فيما بعد مثل ميلاد طفل يصبح في يوم من الأيام قائداً كبيراً ، أو مفكراً عظيماً ، أو سياسياً ماهراً ، أي يصبح من صناع التاريخ^(١).

وسواء كانت الأحداث صغيرة أو كبيرة ، محسوسة أو غير محسوسة ، قصيرة الأمد أو طويلة ، فإن الذي يجمع بينها هو أن الحال قبلها يختلف عنه بعد وقوعها ، فالعالم قبل نابليون بونابرت يختلف عن العالم بعده ، والدنيا قبل الحرب العالمية الثانية تختلف عنها بعدها ، ومصر بعد ثورة ١٩٥٢م تختلف عن مصر قبل الثورة .

والتاريخ يشمل الماضي والحاضر والمستقبل معاً ، ونحن عندما ندرس الماضي فإننا في نفس الوقت ندرس الحاضر والمستقبل ، لأننا إذا دققنا النظر تبين لنا ألا شيء في الوجود يتلاشى ويضيع مع الزمن ، ولا يوجد فاصل بين الماضي والحاضر والمستقبل.

ويعلمنا التاريخ أن لكل زمان ومكان ظروفه وأفكاره وقيمه وأساليبه في التفكير والعمل ، وأن الجنس البشري في تطوره عبر العصور التاريخية ، قد أدخل تعديلات جوهرية على أساليبه ووسائله في مواجهة المشكلات ، ودارسة التاريخ توقفنا على جذور المشكلات الحاضرة وتزيد من فهمنا لها^(٢).

وبهذا يمكن القول - مرة أخرى - أن التاريخ يعني كل شيء حدث في الماضي ، بل هو الماضي نفسه ، أو بعبارة أخرى أدق ما نعرفه من هذا الماضي ، وإذا كان هناك تاريخ للنبات وتاريخ للحيوان وتاريخ للفن .. الخ ، فإن التاريخ المصطلح عليه هو تاريخ الإنسان الذي هو دراسة لأعمال الإنسان في الماضي وأفكاره ومشاعره ومخلفاته ، وبصفة عامة دراسة لتطور المجتمعات البشرية .

(المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي)

(١) د. عبد الحميد السيد : التاريخ في التعليم الثانوي ، ص ٢٠ .
(٢) د. عبد الحميد السيد : نفس المرجع ، ص ٢١ .

عبد الرحمن ابن "نور الدين حسن الجبرتي" ، وكنيته أبو التداني ، وجده عبد الرحمن من بلاد " الجبرت " في شمال الصومال^(١) ، وكان لحسن الجبرتي - وهو من أكبر علماء الأزهر الشريف - ثلاثة منازل بالقاهرة ، له في كل واحد من هذه المنازل زوج وسراري وخدم ومماليك وعبيد وجوار بيض وسود ، وكان منزله بخط الصناديقية أحبها إليه لقربه من الأزهر ، وكانت الدنيا مقبلة إقبالاً عظيماً على الشيخ حسن الجبرتي بما آل إليه من وقف جدة والده " زينب الجوينية " ، وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة "مريم بنت الشيخ محمد المنزلي الأنصاري" من عقارات .

وقد ولد مؤرخنا عبد الرحمن الجبرتي عام ١١٦٧هـ الموافق لعام ١٧٥٣م من إحدى سراري والده الذي قال يوم ولادة عبد الرحمن : " لقد رزقني الله إلى اليوم خمسة وثلاثين مولوداً من الذكور والإناث ماتوا جميعاً دون البلوغ " ، ومن ثم كان يخشى أن يلحق عبد الرحمن بأخوته، ولكن الله مد في عمر عبد الرحمن وأعطاه العلم والحكمة لينهل من علم والده الشيخ حسن ورفاقه من علماء الأزهر ، الذين كان بيت الشيخ حسن ومكتبته يعج بهم ، وقد تزوج عبد الرحمن عام ١١٨٢هـ/١٧٦٨م وعمره أربعة عشر عاماً ، ولا شك أن مسارعة أبيه إلى تزويجه دليل على خوفه الشديد من انقراض ذريته ، وقد توفي الشيخ حسن يوم ١٨ محرم سنة ١١٨٨هـ ، تاركاً لعبد الرحمن ثروة كبيرة ومكتبة علمية كبيرة.

ترك الشيخ حسن الجبرتي لابنه عبد الرحمن أموالاً طائلة وخزائن حافلة ، وترك له من الصداقات المؤتلة في صدور أقرانه من الأشياخ ومريديه من الطلبة وأصدقائه من الأمراء والكبراء ، ما هو أعلى من الثابت والمنقول ، بل ترك له من العلم الذي عمر به صدره ما هو أبقى له على الدهر، وأنفس على العمر ، وقد بدأ عبد الرحمن نشاطه بزيارة بلاد مصر ليعرف مواقعها ، ويتعرف على علمائها وكبرائها، ويزور مساجدها ومشاهدها ويرى مرافقها ومصانعها ، ويشهد الفلاح في قرينته ، والزارع في مزرعته ، فزار طنطا

(١) كان حسن الجبرتي يحدث ابنه عبد الرحمن عن آبائه وأجداده ، وأنهم ينتسبون إلى مسلم بن عقيل بن أبي طالب رضي الله عنهم ، وجاهد الأعمى زين الدين عبد الرحمن الجبرتي ، نزع من بلاد الجبرت إلى الحجاز ، وجاور مكة المكرمة مدة ، ثم جاز بحر القلزم (البحر الأحمر) إلى مصر ودخل الجامع الأزهر ، واجتهد حتى تولى مشيخة رواق الجبرتيية .

ورشيد والإسكندرية وكفر الزيات وإدكو ودمياط والمنصورة ، كما زار بعض بلاد الصعيد^(١).

كان عبد الرحمن الجبرتي أسمر الوجه ، سبط القامة ، عذب الابتسامة ، حلو الحديث والمفاكهة ، متأدباً في السؤال والمبادهة ، مستملاً في المجازبة ، رحباً في المغالبة ، مقتصداً في المجاوبة ، كثير الاستبصار والتفكير ، طويل التأمل والتفكير ، لا يخوض في لغو ، ولا يعرض عن ملحة ، نافذ البصر والبصيرة ، طيب السيرة والسريرة ، يحبه أصدقاؤه من الأسيخ وغيرهم لحسن صفاته، وكرم خلاله ، ويحفظ الكبار منهم عهد والده وأجازه أيضاً أكثر الأسيخ في شتى علوم الفقه واللغة ، وأكب هو على خزانة والده يستتم علوم الفلك والحساب والهندسة وغيرها ، وما عتم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أسيخه، فأصبح دارساً ومدرساً، وهو منتهى ما يصبو إليه شيخ فاضل في ذلك العصر^(٢).

وأما قصة مؤلفاته في التاريخ ، فترجع إلى علاقته بالسيد أبو الفيض محمد مرتضى الزبيدي، الذي نرح من اليمن وهبط مصر عام ١١٦٧هـ ، صاحب معجم " تاج العروس " وقد لازمه عبد الرحمن الجبرتي واعتبره مثله الأعلى ، وكان يحضر عليه دروسه ، واختلط الجبرتي بالكثيرين من تلاميذ السيد محمد مرتضى الزبيدي، الذين صاروا علماء، وقد عرض الزبيدي على الجبرتي مساعدته في الترجمة لأعلام المائة المنصرمة من مصريين وحجازيين ، فأخذ يقلب في خزانة كتب والده حتى عثر على كتاب في التاريخ لمؤلف مجهول اسمه " أحمد جلبي عبد الغني " ، وكتاب " الخلاصة " للأمني ، ثم رسالة شرح الصدر في غزوة بدر التي ألفها الشيخ عبد الله الشبراوي بإشارة من الوالي على باشا الحكيم ، وفي آخرها نبذة في تاريخ ولاية مصر إلى أيام هذا الباشا ، كما استعان بصديقه إسماعيل الخشاب في الحصول على المعلومات المطلوبة من صكوك وحجج في المحكمة ودفاتر المكتبة والمباشرين لمعرفة الأعيان والعلماء لأسمائهم ومناصبهم .

وقد بذل عبد الرحمن الجبرتي جهداً كبيراً في الترجمة لأشهر أعلام المائة الماضية ، (الثانية عشر الهجرية) وفي تحري الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتفصي آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم ، وقد جمع هذه التراجم في كراريس عديدة ، كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع في أوراق متناثرة يسميها " طيارات " تستقل كل

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي : سلسلة اقرأ ، دار المعارف ، القاهرة ، ص ٣٥ - ٣٧ .
(٢) خليل شيبوب : المرجع السابق ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

ورقة منها بحادث معين ينوي تحقيق صحتها فيما بعد . وبعد وفاة السيد محمد مرتضى الزبيدي حصل عبد الرحمن الجبرتي على ما كتبه أستاذه عن تراجم العلماء الأعلام ، وأخذ الجبرتي يراجعها ويحققها بنفسه ، مستعيناً ببعض أصدقائه مثل الشيخ إسماعيل الخشاب، ثم الشيخ حسن العطار وغيرهما، ويستعين بأوراقه وكراريسه، وكراريس سودها بعض العامة من الأجناد - رغم أنها - ركيكة التركيب ، مختلة التهذيب والترتيب^(١) .

وضع الجبرتي مؤلفه المشهور: "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ، بدأه بتمهيد تحدث فيه عن التاريخ وفضله وفائدته، ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف بها في تقسيم طبقات الناس ، ثم بسط النصيحة لأرباب الدول بإقامة العدل وحسن السياسة، وألم بعد ذلك الإمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني عام ١٥١٧م ، وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة الهجرية، فسرد بعض حوادثها، ثم استهل تاريخه بسنة ١١٠٦هـ ، وأجمل الأحداث إجمالاً إلى سنة ١١٢٦هـ ، وشرع بعد ذلك يتابع السنين واحدة فواحدة ، يبسط حوادثها ، ثم يترجم لمن ماتوا فيها ، وقد يرجئ ذلك إلى حين ، لأنه لم يكن على يقين من تاريخ الوفيات ، وذلك حسب قوله: " على سبيل الإجمال بحسب الإمكان فأنى لم أعر على شيء من تراجم المتقدمين من أهل هذا القرن ، ولم أجد شيئاً مدوناً في ذلك إلا ما حصلته من وفياتهم فقط ، وما وعيته في ذهني واستتبطت من بعض أسانيدهم وإجازات أشياخهم على حسب الطاقة " ، وقال في مكان آخر: "لم أخترع شيئاً من تلقاء نفسي ، والله مطلع على أمري وحدسي" ^(٢).

وقد فصل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي تفصيلاً دقيقاً معاداة الفرق العسكرية التي تؤلف الحامية العثمانية ، وتنافس الأمراء والصناجق (المماليك) على الحكم ، وديسانسهم ومصارعهم ، وأسهب في ذكر الشعراء ، يستشهد بالكثير من شعرهم ، وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ، ولكنه لا يشعر بتضلعه في الأدب والشعر ، ثم أنه فقيه صوفي لا بد أن يولي همه مشايخ الصوفية، ويشرح معمياتهم وألغازهم، وهو أيضاً عالم فلكي يحب أن يذكر الأحداث الفلكية، ويحاول تفسير الحوادث على ضوءها في بعض الأحيان ، ولعل علو كعبه في العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل في النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة ، وهو إلى جانب هذا يدخل في الحياة الخاصة ، ويسلسل الأسر ، ويذكر علاقات أفرادها

(١) خليل شيبوب : المرجع السابق نفسه ، ص ٩٠ - ٩٥ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار .

ببعضهم البعض ، ويثني ويذم حسب مقتضيات الحالة وكما يراها ، وعنيَّ عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها ، وما إلى كل هذا من شئون مختلفة ، وأمور مصطفقة .

على أنه إلى سنة ١١٧٧هـ / ١٧٦٣م ما برح عبد الرحمن الجبرتي يكرر ويؤكد أن كل روايته "بحسب التيسير إذ التفصيل متعذر ، وجمع الشوارد في الظلام متعسر ، وذلك بحسب الإمكان وما وعاه الفكر والذهن خوان" ، لأنه كان يكتب عما حفظ ووعى سواء من " لفظ الشيخ الوالد " أو غيره ، ولما أدرك العاشرة من عمره وهي سن التمييز انقلبت الحال من السماع إلى العيان ، وهو القائل: "ولما صرت في سن التمييز رأيت الأشياء على ما ذكر إلا قليلاً" (١).

وبعد ذلك — بعد سن التمييز — أصبح عبد الرحمن الجبرتي يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيوخه السيد مرتضى ، فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ، ثم يختمها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا ، ومنذ أول المائة الثالثة عشرة أخذ في التفصيل والتطوير ، لأنه قد دون كل الحوادث والوقائع ، ولم يعد في حاجة إلى اقتداح القريحة وكد الذاكرة إلا في الجزئيات (٢).

ولما وصل عبد الرحمن الجبرتي في مؤلفه إلى فترة الحملة الفرنسية على مصر ، اكتفى بإثبات كتابه " مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين " برمته بعد أن حذف مقدمته والفصول التي كتبها صديقه الشيخ حسن العطار ، وعاد إلى أمانته التاريخية من إنصاف المؤرخ لهم وقوم بعض الحوادث وصحتها كما يرى ذلك من يقارن بين الكتابين ، لأنه لم يبق هناك وزير يترضاه ولا أمير يهابه ، ولأنه يحب ضرب المثل بالفرنسيين لهؤلاء العائدين من العثمانيين — بعد خروج الحملة الفرنسية — ، ثم والى تنسيق الحوادث على النمط الذي اختطه لنفسه ، فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وجرى بالجزء الأول إلى آخر عام ١١٨٩هـ ١٧٧٥م ، وبالثاني إلى آخر سنة ١٢٢١هـ ١٧٩٧م ، وبالثالث إلى آخر سنة ١٢٢٠هـ ١٨٠٥م (٣).

جاءت سرديات الجبرتي في كتابه ما نصه : "إني كنت سودت أوراقاً في حوادث القرن الثاني عشر الهجري وما يليه ، وأوائل القرن الثالث عشر الذي نحن فيه ، جمعت

(١) عبد الرحمن الجبرتي : المرجع السابق نفسه .

(٢) خليل شيبوب : المرجع السابق ص ٩٧ .

(٣) المرجع السابق نفسه ، ص ٩٨ .

فيها بعض الوقائع إجمالية ، وأخرى محققة تفصيلية ، وغالبها محن أدركناها وأمور شاهدناها ، واستطرد في ضمن ذلك سوابق سمعتها ، ومن أفواه الشَّيْخَةِ تَلْقِيَتِهَا ، وبعض تراجم الأعيان المشهورين من العلماء والأمرءِ المعْتَبَرِينَ ، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم ، وبعض تواريخ مواليدهم ووفياتهم^(١).

هكذا عاش عبد الرحمن الجبرتي في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر الهجري (١١٦٧هـ) ليضيف إلى جهد والده الشيخ حسن الجبرتي علماً وفضلاً ، وينتقل إلى جوار ربه عام ١٢٤١هـ الموافق لعام ١٨٢٥م ، وما زال كتابيه يمثلان الصدق والموضوعية في سرد الأحداث التاريخية لمصر المحروسة .

(١) عبد الرحمن الجبرتي : المرجع السابق .

(سرديات الجبرتي ومصر في العهد العثماني المملوكي)

وضع السلطان سليمان القانوني لحكم الولايات العثمانية - ومنها الأقطار العربية - نظاماً للحكم يقوم على توزيع السلطة بين ثلاث قوى كانت على النحو الآتي :

أولاً: الوالي: ويلقب بالباشا ، وهو نائب السلطان في حكم الولاية ، وله سلطة تنفيذ أوامر السلطان والرئاسة على جميع الموظفين العثمانيين في الولاية ، وإن كانت سلطته مقيدة بوجود قوى أخرى تشاركه في السلطة ، مثل رؤساء الجند والعصبيات المحلية ، كما أنها محدودة بفرمان يصدر من السلطان بالتعيين لمدة قابلة للتجديد .

ثانياً: رؤساء الجند: وهم قادة الفرق أو الأوجاقات ، تلك الفرق الموكول إليها الدفاع عن الولاية ضد الغزو الخارجي وحفظ النظام والأمن الداخلي ، وخاصة بالتصدي للثورات التي قد يقوم بها أهالي الولاية ضد الحكم العثماني ، ومن اجتماع قادة الفرق يتألف مجلس شورى الوالي المسمى بالديوان الذي له السلطة الكبيرة في إدارة الحكومة ، حيث لا يستطيع الوالي أن يبرم أمراً إلا بموافقة أعضائه ، فهم بمثابة سلطة رقابة وإشراف على سلطة الوالي ، وحتى عندما انقسم الديوان إلى ديوان كبير وديوان صغير ، ظل لسلطة قادة الجند القوة في مواجهة الوالي .

ثالثاً: العصبيّة المحليّة: خير مثل للعصبيّة المحليّة وسلطتها في حكم الولاية ، المماليك في مصر ، حيث أصبح لهم حكم الأقاليم المختلفة للولاية ، بحكم أنهم أعرف بأهل البلاد وظروفها ، وفي وقت ضعف الدولة وجندها تقوى شوكة العصبيّة المحليّة ، حتى يصير في إمكانهم عزل الوالي أو الاستئثار بالنفوذ دونه .

وكان يساعد هذه القوى الثلاث مجموعة من الموظفين ، يعينهم السلطان العثماني مثل الكتخدا أي وكيل الوالي ، والدفتردار المسئول عن الشؤون المالية ، والسلاح دار (السلحدار) المسئول عن أمور التسليح ، والخازن دار (الخزندار) المكلف بالخزانة العامة للولاية... الخ .

وانطلاقاً من نظام الحكم العثماني في مصر استمرت الخلافات بين هيئات الحكم الثلاث ، ورأينا في أوائل القرن الثامن عشر انهيار سلطة الباشا أمام سيطرة وقوة الأوجاقات العثمانية ، والبكوات المماليك .

وكان مما زاد من قوة البكوات المماليك أن المماليك يشترتون صغاراً ويعتقون الدين الإسلامي ويخضعون لتربية عسكرية قاسية ، بالإضافة إلى استمرار تدفقهم من خارج مصر ، وعدم انصهارهم في المجتمع المصري ، وكل ذلك أدى إلى أن طوائف المماليك ظلت محتفظة بنقائها وذاتيتها الخاصة .

وكان منصب شيخ البلد وهو حاكم القاهرة أعلى المناصب التي يتقلدها البكوات المماليك ، حيث كان يتولاه زعيمهم وأكثرهم عصبية وأكبرهم قوة عسكرية ، يليه منصب أمير الحج ، وكثيراً ما كان الخلاف يقع بين البكوات المماليك حول هذين المنصبين ، فإذا تولاه أحدهم أخذ في التتكيل بمنافسيه وخصومه من البكوات المماليك ، وأغدق الهبات والوظائف على أنصاره ومؤيديه، فعندما قتل حسين بك القازدغلي المعروف بالصابونجي وتعين في الرياسة بعده على بك الكبير (عام ١١٧٢هـ الموافق ٤ سبتمبر ١٧٥٨ - ٢٤ أغسطس ١٧٥٩م) أحضر خشداشيينه^(١) المعينين واستقر أمرهم^(٢).

ولقد وصف الرحالة والكتاب الأجانب الذين زاروا مصر في القرن الثامن عشر أحوال مصر وما أصابها من اضطراب نتيجة الخلافات المملوكية في غيبة الباشوات الأقوياء ، وفي حال انحلال الأوجاقات العثمانية ، ورغم الخلافات بين البكوات المماليك ، إلا أنهم كانوا يتحدون ضد باشا لايرغبون وجوده في القاهرة ، فيروي الجبرتي في عام ١١٧٤هـ الموافق ١٣ أغسطس ١٧٦٠م ، أن الباشا كان يدعى مصطفى باشا ، ويبدو أن البكوات المماليك كانوا عنه راضين ، حتى إذا عينت الدولة آخر يدعى : أحمد باشا كامل المعروف بصبطلان" ، كان ذا شهامة وقوة مراس فدقق في الأحكام ، وصار يركب وينزل ويكشف على الأنبار والغلل ، فتعصب عليه الأمراء وأصعدوا مصطفى باشا المعزول ، وعرضوا في شأنه إلى الدولة"^(٣).

وإذا كان الشعب المصري الذي يقع عليه عبء هذه الخلافات يثور هنا وهناك في أنحاء مصر فقط عندما تمس حياته بصورة يهتز لها مفهوم العدل والحكم العادل عند المصريين ، فإن الحكومة العثمانية كانت تلجأ إلى عدة إجراءات عقاباً للبكوات المماليك ، من أمثلتها إغلاق أسواق الرقيق في المناطق المحيطة بالبحر الأسود ، وبصفة خاصة في

(١) خشداشيينه جمع خشداش أي زميل في الرق .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ، ص ٧١ .

(٣) عبد الرحمن الجبرتي : نفس المرجع السابق ، ص ٧٢ .

البلقان حتى تحرم البكوات المماليك من مصادر قوتهم العديدة ، كما كانت الحكومة العثمانية تلجأ - وخاصة في الأوقات التي لا تكون فيها مشغولة بحروب خارجية - إلى إرسال حملات تأديب إلى مصر يقابلها البكوات المماليك بالفرار إلى الصعيد ، ثم يعودون إلى القاهرة متى سحبت الحكومة العثمانية هذه الحملات .

ومن الطبيعي أن تتأثر أحوال المصريين بهذه الظروف ، فالزراعة مضطربة ، والتجارة كسدت ، والنواحي الثقافية تجمدت ، في الوقت الذي زادت فيه سلطة شيخ البلد إلى حد الطغيان ، وفي الوقت الذي زادت فيه الضرائب على المصريين لمواجهة المشروعات الكبيرة التي يعمل شيخ البلد على تنفيذها ، ولمواجهة إغلاق أسواق الرقيق أمام البكوات المماليك ، باستخدام جنود مرتزقة من البدو والنوبيين واليونانيين ، الذين استخدموا في الحرب بالمدافع التي اشتراها شيخ البلد .

وجاءت سرديات المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي عن علي بك الكبير شيخ البلد ، وزعيم المماليك خلال الفترة من ١٧٦٣م حتى ١٧٧٣م ، لتوضح شخصية علي بك الكبير وسياسته ، سواء داخل مصر مع زملائه من البكوات المماليك ، وخاصة مع المعارضين له ، أو خارج مصر في حملاته إلى الحجاز وإلى الشام ، والذي عرف باسم علي بك الكبير بعد أن اتسعت فتوحاته .

فذكر عبد الرحمن الجبرتي عن شخصية علي بك الكبير ما نصه : مارس - علي بك الكبير - منازعات وحروب قاسية بينه وبين خصومه ومنافسيه من البكوات المماليك ، وكان قوي المراس ، وقال أنا لا أتقلد الإمارة إلا بسيفي لا بمعونة أحد ، ... وأنه قتل منافسيه من الرؤساء والأقران وباقي الأعيان ، فرق جمعهم في القرى والبلدان ، وتتبعهم خنفاً وقتلاً ، وأبادهم فرعاً وأصلاً ، واستأصل كبار خشداشيينه وقبيلته ، وأخرم القوانين الجسيمة والعوائد المرتبة ، وحارب كبار العربان" (١) .

وكان علي بك - في سرديات المؤرخ الجبرتي - "يشيد بدولة المماليك في مصر وبزعمائها ، مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وغيرهم ، ويفخر بانتسابه لهم .. وكان - علي بك - عظيم الهيبة ، فقد اتفق لأناس ماتوا فرقاً من هيبتة ، وكان صحيح الفراسة ، شديد الحذق ، ولا يحتاج في التفهم إلى ترجمان أو من يقرأ له الصكوك والوثائق ، بل يقرأها

(١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ص ٩٧ .

بنفسه". كما أن علي بك - في سرديات عبد الرحمن الجبرتي - هو الذي ابتدع المصادرات وسلب الأموال من مبادئ ظهوره ، واقتدى به من بعده .. " (١).

وفي تخلص علي بك من منافسيه والخارجين عليه ، يسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي تخلصه من عبد الرحمن كتحدا الذي كان أكبر منافس له ، فيسرد : " وقد ارتجت مصر (القاهرة) في ذلك اليوم عام ١١٧٨هـ (عامي ١٧٦٤ ، ١٧٦٥م) وخصوصاً لخروج عبد الرحمن كتحدا - منفيًا إلى الحجاز - ، فإنه كان أعظم الجميع ابن سيدهم ، وله الصولة والكلمة والشهرة ، وكان له عزوة كبيرة ومماليك وأتباع وعساكر مغاربة وغيرهم ، حتى ظن الناس وقوع فتنة في ذلك اليوم ، فلم يحصل شيء من ذلك سوى ما نزل بالناس من البهتة والتعجب " (٢) .

كما تخلص علي بك الكبير من عربان البحيرة الثائرين عليه ، وسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ما حدث " ... وحتى سويلم بن حبيب - زعيم قبائل الحبايبة - قتله جيش علي بك وقطعوا رأسه ورفعوها على رمح ، واشتهر ذلك فارتفعت الحرب من بين الفريقين ، وتفرق الهنادي وعرب الجزيرة والصوالحة وغيرهم ، وراحت كسرة على الجميع ، ولم يبق لهم قائم من ذلك اليوم " (٣).

ويسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ما نتج عن تخلص علي بك الكبير من منافسيه من البكوات المماليك - وليس للسلطة العثمانية من قوة أو قدرة على فرض النظام العثماني للسيطرة على مصر - فيسرد الجبرتي في أحداث اليوم الثاني من شهر جمادي الآخر ١١٨١هـ (٢٦ أكتوبر ١٧٦٧م) أنه - أي علي بك - طلع ومعه أتباعه إلى الديوان بالقلعة ، فخلع الباشا - العثماني - على علي بك واستقر في مشيخة البلد كما كان ، وخلع على صنابقه خلع الاستمرار أيضاً في إماراتهم كما كانوا ، ونزلوا إلى بيوتهم ، وثبت قدم علي بك في إمارة مصر ورئاستها في هذه المرة ، وظهر بعد ذلك الظهور التام وملك الديار المصرية والأقطار الحجازية ، والبلاد الشامية ، وقتل المتمردين ، وقطع المعاندين ، وشتت شمل المنافقين ، وخرق القواعد ، وخرم العوائد ، وأخرب البيوت القديمة ، وأبطل الطرائق التي كانت مستقيمة (٤).

(١) عبد الرحمن الجبرتي : المرجع السابق نفسه ، ص ٧٦ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ص ٥٧ .

(٣) المرجع السابق نفسه : ص ٨٧ .

(٤) المرجع السابق نفسه : ص ٨٩ .

ويسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الموقف المعادي من على بك الكبير للدولة العثمانية ورجالها في مصر ، بسرد تعامل على بك الكبير مع الوالي العثماني في مصر محمد راقم باشا ... " فأصبحوا - رجال على بك - وملكوا الأبواب ، والرميلة (ميدان القلعة) ، والمحجر وحوالي القلعة ، وأمره بالنزول ، فنزل من باب الميدان إلى بيت أحمد بك كشك ، وأجلسوا عنده الحرسجية (الحراسة لتحديد إقامته) ، وكان ذلك في رجب ١١٨٢هـ الموافق ٢٧ نوفمبر ١٧٦٨م ، وبعد أسبوعين تقلد على بك القائمقامية عوضاً عن الباشا ، وكان ذلك في غرة شهر شعبان ١١٨٢هـ الموافق ١١ ديسمبر ١٧٦٨م.^(١)

وسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الحملة إلى الحجاز في عام ١١٨٤هـ - ١٧٧٠م بأن على بك الكبير انتهز فرصة الخلاف حول منصب شريف مكة بين الشريف القائم بالحكم ، الشريف أحمد وابن عمه الشريف عبد الله الذي جاء إلى مصر ، واستتجد بعلي بك ، وقد وافق ذلك - كما يذكر الجبرتي - غرضه الباطني ، وهو طمعه في الاستيلاء على الممالك ، فأرسل حملة أنزلها في السويس في تجمل زائد ومهياً عظيم ، وساري عسكرها محمد بك أبو الذهب ، وصحبه حسن بك ومصطفى بك وخلافهم ، ونجح الجيش في الاستيلاء على الحجاز ونودي بعلي بك في الحرمين الشريفين سلطان مصر وخاقان البحرين ، وذكر اسمه ولقبه هذا على منابر المساجد في الحجاز كلها ، وبعد خمسة شهور عادت الحملة إلى مصر ودخل قائدها محمد بك أبو الذهب إلى مصر - القاهرة - في موكب عظيم ، وأنت إليه العلماء والأعيان للسلام ، وقصدته الشعراء بالقصائد والتهاني.^(٢)

ويسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي حملة على بك الكبير على الشام بقوله : " إنه في هذا اليوم (منتصف شهر رجب عام ١١٨٤هـ الموافق ٤ نوفمبر ١٧٧٠م) زاد اهتمام على بك الكبير بالتحرك على جهة الشام ، فلما تكامل الجيش بعدته وعتاده وعدده ، أقاموا بالعدلية أياماً ، حتى قضوا لوازهم وارتحلوا وسافروا إلى جهة الشام ، وأصدر على بك أمراً بأن يكون على رأس هذه الحملة المسافرة براً إسماعيل بك ، وبعد أسبوع برزت تجريده أخرى وعليها سليمان بك وعمر كاشف ، وجملة كثيرة من العساكر ، فنزلوا من طريق البحر على دمياط ، وفي منتصف ذي القعدة ١١٨٤هـ الموافق ٢ مارس ١٧٧١م خرجت تجريدة أخرى وسافرت على طريق البر على النسق ، وفي عام ١١٨٥هـ ،

(١) الجبرتي : المرجع السابق ص ٨٥ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٩١ .

أخرج علي بك تجريدة عظيمة وسر عسكرها وأميرها محمد بك أبو الذهب وأيوب بك ، ورضوان بك وغيرهم ، وقد سقطت في يد الحملة كل مدن الشام حتى دمشق ذاتها في شهر أبريل ١٧٧١م ، وقد حاربهم النواب والولادة وهزموهم وقتلوهم وفروا من وجوههم واستولوا على الممالك الشامية إلى حد حلب (١).

وسرد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي خروج محمد بك أبو الذهب على سيده علي بك الكبير فيقول : " جمع محمد أبو الذهب - وهو في دمشق - أمراءه وخشداشينه الكبار في خلوة وعرض عليهم الأوامر - التي أصدرها علي بك باستمرار الزحف - فضاقت نفوسهم وسئموا الحرب والقتال والغربة ، وذلك ما في نفس محمد بك أيضاً ، وأصبحوا راحلين وطالبيين مصر ، فغادر سيده - علي بك - مصر بعد أن حمل حموله وأمواله وذهب إلى جهة الشام ، وصحبته علي بك الطنطاوي ، وباقي صناقجه ومماليكه وأتباعه وطوائفه .. وعندما حاول العودة إلى مصر التقى بجيش محمد بك أبو الذهب بالصالحية بالشرقية في ١٦ صفر ١١٨٧هـ ، ٢٦ أبريل ١٧٧٣م ، في معركة كان النصر فيها لجيش محمد أبو الذهب ، وكان لخيانة المرتزقة من مشاة المغاربة أثر أساسي في هزيمة الصالحية ، وبذلك خلصت مصر لمحمد بك أبو الذهب رغم وصول الوزير خليل باشا والياً على مصر في ٨ يونيو ١٧٧٣م ، إلا أن هذا الوالي لم يكن له في الولاية إلا الاسم والعلامة على الأوراق والتصرف الكلي للأمير الكبير محمد بك أبو الذهب والأمراء وأعيان الدولة مماليكه وأشراقاته (٢).

ويختتم المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي سردياته عن مصر زمن مشيخة علي بك الكبير للبلد بما أورده في أول رمضان ١١٨٣هـ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٧٦٩م ، بأنه " اتفق أن علي بك صلى الجمعة الأولى من رمضان بجامع الداودية - شارع القلعة - فخطب الشيخ عبد ربه ودعا للسلطان - العثماني - ثم دعا لعلي بك ، فلما انقضت الصلاة وقام علي بك يريد الانصراف أحضر الخطيب ، وكان رجلاً من أهل العلم يغلب عليه البله والصلاح ، فقال له من أمرك بالدعاء باسمي على المنبر ؟ أقيل لك أنني سلطان ؟ فقال نعم أنت سلطان وأنا أدعو لك ، فأظهر الغيظ وأمر بضربه فبطحوه وضربوه بالعصى ، فقام بعد ذلك متألماً من الضرب ، وركب حماراً وذهب إلى داره وهو يقول في طريقه :

(١) الجبرتي : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٢) المرجع السابق نفسه : ص ٩٣ - ٩٩ .

بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ ، ثم إن على بك أرسل إليه في ثاني يوم بدارهم وكسوة واستسمحه^(١).

وقد سرد عبد الرحمن الجبرتي المظالم التي ارتكبتها الجند العثمانيون ضد المصريين ، فيذكر أن " العلماء كانوا يتركون دروسهم في الأزهر ويسيرون مع الناس إلى بيت القاضي وهم يتوجهون إلى الله صائحين داعين : حسبنا الله ونعم الوكيل ، يا متجلي أهلك العثماني ، وأمثال ذلك من الدعاء "^(٢) .

كما سرد الجبرتي صورة من تعسف الأمراء المماليك مع الشعب المصري ، وكان أكثر هؤلاء المماليك تعسفاً عثمان البرديسي ، فقال : " اجتمعت جماهير الأهالي في المساجد وخرج الفقراء والعامّة والنساء طوائف يصرخون ، وبأيديهم دفوف يضربون عليها ، والنساء يندبن وينعين ويقلن كلاماً مثل قولهن: إيش تاخذ من تقليسي يا برديسي ، وصبغن أيديهن بالنيلة " ^(٣).

(١) الجبرتي : المرجع السابق ، ص ٩٠ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) المرجع نفسه .

سرديات الجبرتي
عن أحداث الحملة الفرنسية على مصر
١٧٩٨ - ١٨٠١م

جاءت الحملة الفرنسية على مصر بقيادة الجنرال نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م ، لتتجح في هزيمة المماليك وفرار العثمانيين ، ووقوف الشعب المصري بصلاية ضد الوجود الفرنسي على أرض مصر ، فقامت ثورات القاهرة الأولى ، والقاهرة الثانية ، وفي الأقاليم ، حتى شعر الفرنسيون في نهاية الأمر باستحالة بقائهم في مصر ، وفشل مشروع بونابرت بإقامة مستعمرة فرنسية في الشرق قلبها مصر .

عايش المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي الوجود الفرنسي على أرض مصر ، وسرد الأحداث التي شهدتها مصر خلال السنوات الثلاث (١٧٩٨ - ١٨٠١م) ، التي مكنتها الحملة الفرنسية في مصر ، وسوف نستعرض بعض السرديات التي وردت في كتب عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار ، ومظهر التقديس ...

"لما حضر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون في الشوارع مع نساءهم وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفستانات والمناديل الحريرية الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة ، فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش ، فتداخن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن" (١).

ويذكر عن ثورة القاهرة الأولى، وإخضاعها بالقوة ومركزها الجامع الأزهر ومنطقته: "وتعمدوا - أي الفرنسيين - بالخصوص الجامع الأزهر وحرروا عليه المدافع والقنبر ، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين كسوق الغورية والفحامين ، فلما سقط عليهم ذلك ، ورأوه ولم يكونوا في عمرهم عاينوه ، نادوا : يا سلام من هذه الآلام ، ياخفي الألفاف نجنا مما نخاف ، وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق" (٢) .

وسرد أخبار تشكيل الديوان ، واستحسن الجبرتي دقة العمل في هذا الديوان ، مما لم يكن مألوفاً قبل مجيء الفرنسيين فقال: "ضبط الحوادث اليومية في جميع دواوينهم وأماكن

(١) عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيين ، ج ١ .
(٢) المرجع نفسه .

أحكامهم ، ثم يجمعون المتفرق في ملخص يرفع في سجلهم بعد أن يطبعوا منه نسخاً عديدة يوزعونها في جميع الجيش ، حتى لمن يكون في غير مصر - القاهرة - من قرى الأرياف ، فنجد أخبار الأمس معلومة للجليل والحقير منهم ، فلما رتبوا ذلك الديوان ، كان إسماعيل الخشاب هو المتقيد برقم كل ما يصدر في المجلس من أمر ونهي ، أو خطاب أو جواب، وقرروا له في كل شهر سبعة آلاف نصف فضة ، فلم يزل متقيداً في تلك الوظيفة مدة ولاية " عبد الله جاك مينو " حتى ارتحلوا من الإقليم .

وسرد عبد الرحمن الجبرتي أيضاً عن تشكيل الديوان فقال: " وفي يوم الاثنين سادس عشرة من شهر رجب ١٢١٢هـ - ١٧٩٨م، شرع الفرنسيين في ترتيب الديوان على تنظيم آخر ، وعينوا له ستون نفر منهم أربعة عشر يقال لهم الخصوص ، وهم الذين يحضرون دائماً ، ويقال لهم الديوان الخصوصي والديوان العمومي ، والباقي بحسب الاقتضاء ، والأربعة عشر فيهم من المشايخ: الشراقون ، والمهدي ، والصاوي ، والبكري ، والفيومي ومن التجار: المحروقي ، وأحمد بك بن محمود محرم ، ومن النصارى القبطة: لطف الله المصري ، ومن الشوام: يوسف فرحات ، وميخائيل كحايل ، وواحد انجليز ، ويوديف وموسى كافو الفرنسيان ، ووكلاء ومباشرين من الفرنسيين وتراجميين ، وأما العمومي فغالبة مشايخ حرف ، وكتبوا بذلك طوماراً كبيراً بصموا منه نسخاً كثيرة ، وأرسلوا منها نسخاً للأعيان ، ولصقوا منها بالأسواق على العادة ، وأرسلوا للذين عينوا بالديوان أوراقاً بأسمائهم "(١).

وسرد عبد الرحمن الجبرتي أحداث ثورة القاهرة الثانية ، ضد كبير قائد الحملة الفرنسية بعد رحيل نابليون بونابرت ، فذكر عن ثورة أهل بولاق ، "وأما بولاق فإنها قامت على ساق وتهور في ذلك، وتشدد الحاج مصطفى البشتيلي وهيج العامة ، فأخذوا الأسلحة والعصى والنبابيت ، وذهبوا إلى وطاق الفرنسيين الذي تركوه بساحل البحر (النيل) وعنده جماعة منهم للحرس ، فقتل من أدركه أهل بولاق منهم وفر من فر ، ونهبوا ما فيه من الخيام والمتاع وغيره ، وزحفوا إلى البلد (القاهرة) وفتحوا مخازن الغلال والودائع التي للفرنسيين وأخذوا ما أحبوا منها ، وعملوا كرانك حوالي البلد وماتريس ، واستعدوا للحرب والجهاد "(٢).

(١) المرجع السابق .

(٢) المرجع نفسه : ج ٢ .

كما أن الجبرتي سرد حادثة مقتل الجنرال كليبر فقال: " في يوم السبت ٢١ من شهر المحرم سنة خمسة عشرة ومائتين وألف ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م ، وقعت نادرة غريبة ، وهو أن كليبر كبير الفرنسيين كان مع كبير المهندسين من الفرنسيين يسيران بدلهيز البستان الذي في داره ، فدخل عليه شخص وقصده ، فأشار عليه بالرجوع وقال له: ما فيش ، وكررها فلم يرجع ، وأوهمه أنه صاحب حاجة وهو ملهوف ، فلما دنا منه مد إليه يده اليسار فمد إليه الآخر يده فقبض عليها وضربه بخنجر كان أعده في يده اليمنى ثلاث ضربات متوالية ، فسقط إلى الأرض صارخاً ، فصاح رفيقه فذهب إليه وضربه أيضاً ضربات وهرب ... وعندما أمسك به العسكر الفرنسيين ، وجدوه شامياً فأحضروه وسألوه عن اسمه وعمره وبلده ، فوجدون حليياً واسمه سليمان ، فسألوه عن محل مأواه فأخبرهم أنه يأوى ويبيت بالجامع الأزهر ، فسألوه عن معارفه ورفقائه ، وهل أخبر أحداً بفعله ؟ وهل شاركه أحد في رأيه وأقره على فعله ، أو نهاه عن ذلك ، وكم له بمصر ؟ وعن صفته وملته ، فأخبرهم أنه على ملة النبي - محمد - p ، وعمره أربع وعشرون سنة وصفته كاتب عربي، وله في مصر خمسة أشهر ، وأنه حضر إلى مصر سابقاً وسكن بها ثلاث سنوات ... " (١).

واستطرد الجبرتي في سرده لحادث مقتل الجنرال كليبر ، ومحاكمة قاتله والتي أشاد بها الجبرتي ، رغم كراهته للفرنسيين ، فقال: "ثم إنهم رتبوا صورة محاكمة من رؤسائهم ومديرهم، وعملوا صورة دعوى وشهود وتحاكموا فيما بينهم بعد إقامة الدعوى والتفحص فحكموا بقتل الثلاثة أنفار المذكورين لكونهم لما سمعوا منه وأخبرهم ليلة أمس بأنه عازم على قصده صبح تاريخه ، كان الواجب عليهم أن يخبروا الفرنسيين بذلك ... وأفوا في ذلك كتاباً في حجم الثلاث كراريس ، ذكروا فيه صورة الواقعة وكيفيةها والفحص عن القاتل ، وإحضار الشهود وإقرارهم، وترتيب المحكمة ومحاكمة القضاة وأسمائهم وتفصيل الدعوى ، وبصموا من ذلك جملة نسخ باللغات الثلاث : العربية والفرنساوية والتركية ... ثم انشغلوا بعد ذلك بدفن صاري عسكرهم المقتول " .

" ولما ذهبوا بجنازة صاري العسكر من الأزبكية ووصلوا إلى تل العقارب ، حيث القلعة التي بنوها هناك، ضربوا عدة مدافع، وكانوا أحضروا سليمان الحلبي القاتل والثلاثة

(١) المرجع السابق نفسه .

أنفار المطلوبين ، فخورقوا في ذلك الوقت الشهيد سليمان، وضربوا رقاب الثلاث وحرقوا أبدانهم ، ورفعوا رءوسهم على خوازيق بجانبه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله" (١).

هذه نماذج من سرديات المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي عن أحداث الحملة الفرنسية بمصر ، والتي سردها بموضوعية ، سقّتها دون تعليق لأنها واضحة المعالم ، مفهومة المرويات .

سرديات الجبرتي

عن الأحداث بمصر في عصر محمد علي باشا

سرد الجبرتي في كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، كيف تولى محمد علي ولاية مصر ، حيث يذكر في حوادث شهر صفر ١٢٢٠هـ الموافق لعام ١٨٠٥م ، أن — علماء الأزهر والأعيان — قالوا لمحمد علي الضابط في الجيش العثماني ، العائد إلى مصر بعد خروج الحملة الفرنسية : " إنّا لا نريد الباشا العثماني القائم آنذاك حاكماً علينا ، ولا بد من عزله من الولاية ، فقال — محمد علي — ومن تريدونه يكون والياً ، قالوا : لا نرضى إلا بك تكون والياً علينا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولاً ثم رضي ، وأحضروا له "كركاً" وعليه قفطان ، وقام إليه السيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوي فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك في تلك الليلة في المدينة ، وكان ذلك يوم الاثنين ١٣ صفر ١٢٢٠هـ الموافق ١٣ مايو ١٨٠٥م " (٢) .

ويستطرد الجبرتي في سردياته لكيفية ولاية محمد علي الباشوية المصرية ، بأن العلماء والأعيان المصريين ، قد نجحوا في الحصول على فرمان سلطاني بولاية محمد علي لمصر، لأن السيد عمر مكرم نقيب الأشراف : زاد أمره بمباشرة الوقائع — الخاصة بالثورة ضد أحمد خورشيد باشا — وولاية محمد علي باشا ، وصار بيده الحل والعقد والأمر والنهي والمرجع في الأمور الكلية والجزئية.. وأن شروطهم — أي شروط العلماء هي أن يحكم محمد علي بمشورتهم ، وأن يتحرى العدل في كل إجراءاته ، وأن يرفق بالرعية" (٣) .

(١) المرجع السابق نفسه .

(٢) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ج ٣ ، ص ٦٣٨ .

(٣) المرجع نفسه ، ص ٧١٤ .

ويسرد الجبرتي أحداث الانتصار الشعبي المصري في رشيد عام ١٨٠٧م على حملة "فريزر" الإنجليزية ، فيقول في أحداث يوم الجمعة ٢٤ المحرم عام ١٢٢٢هـ الموافق ٢ أبريل ١٨٠٧م : وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنجليز وصلت إلى رشيد في صباح يوم الثلاثاء حادي عشرينه (٣١مارس) ودخلوا البلد ، كان أهل البلدة ومن معهم من العساكر منتبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت ، فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية ، فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة ، وطلبوا الأمان ، فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم ، وذبحوا منهم جملة كثيرة ، وأسروا الباقين "(١).

وعندما رأى أهل مصر (القاهرة) رءوس القتلى الإنجليز وأسراهم يطاف بها في القاهرة ، سارعوا إلى الانتظام في صفوف مترابطة للجهاد ضد الإفرنج الغزاة ، وذلك عندما حدث في ٢٦ المحرم ١٢٢٢هـ الموافق ٥ أبريل ١٨٠٧م ، أن نبه السيد عمر مكرم النقيب (نقيب الأشراف في مصر) على الناس ، وأمرهم بترك حضور الدروس ، وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس .

وفي الحماد جنوب رشيد حلت الهزيمة ثانية بالإنجليز في ٢١ أبريل ١٨٠٧م ، سردها الجبرتي بقوله : "اجتمع الجم الكثير من أهالي البحيرة وغيرها من أهالي رشيد ، ومن معهم من المتطوعة والعساكر وأهل دمنهور ، فكان بين الفريقين مقتلة كبيرة ، وأسروا من الإنجليز طائفة ، وقطعوا منهم عدة رءوس ، وفي يوم الجمعة ١٥ صفر ١٢٢٢هـ الموافق ٢٤ أبريل ١٨٠٧م ، حضروا بأسرى (الإنجليز) - إلى القاهرة - وعدتهم تسعة عشر شخصاً ، وعدة رءوس ، فمروا بها من طريق باب الشعرية وعدتها نيف وثلاثين رأساً موضوعة على نيابيت "(٢).

وجاءت سرديات عبد الرحمن الجبرتي عن مشروعات محمد على في التعليم والجيش والزراعة والصناعة والتجارة ، لتظهر الخلاف بين الرجلين ، لأن الجبرتي كان يمثل فكرة العدل في الإسلام، بينما كان محمد على يمثل القوة الغشوم في تاريخ البلاد المسلمة، ونحن إذن أمام قطبين متنافرين: أحدهما هو العدل الذي آمن به، ومثله الجبرتي ، وثانيهما هو القوة التي آمن بها ، ومثلها محمد على .

(١) الجبرتي : المرجع السابق نفسه : ص ٧١٥ .

(٢) المرجع نفسه : ص ٧٢٥ .

ومع ذلك كان الجبرتي ينصف محمد علي ، ويشيد بمشروعاته ، فعندما أقام سد رشيد قال الجبرتي : " إن ذلك من أعظم الهمم المملوكية التي لم يسبق بمثلها " وعند إصلاح سد الإسكندرية قال الجبرتي : " إن محمد علي له مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان ، فلو وفقه الله لشيء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاوله ، لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه "(١).

سرديات الجبرتي عن علاقة محمد علي بالحجاز

عند صدور فرمان عام ١٨٠٦م لتثبيت محمد علي في ولاية مصر ، طلب منه السلطان العثماني تجهيز حملة عسكرية إلى الحجاز لاستعادتها من أمراء الدولة السعودية الأولى ، الذين انطلقوا من الدرعية في نجد حاملين مبادئ دعوة الشيخ محمد عبد الوهاب المعروفة بدعوة التوحيد ، أو الدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين، وضموا الحجاز عام ١٨٠٣م، بعد أن كانت تابعة للسلطنة العثمانية ، ومن ثم بدأ محمد علي من عام ١٨١١م في إرسال الحملات لاستخلاص الحجاز من المسيطرين الجدد عليها ، واستمرت تلك الحملات حتى دخولها مدينة الدرعية عاصمة الدولة السعودية عام ١٨١٨م .

ورغم أن عبد الرحمن الجبرتي مصري ويعيش في ظل الحاكم العثماني محمد علي باشا ، الذي أرسل الحملات العسكرية إلى الحجاز ، إلا أن الجبرتي لم يجامل محمد علي، ولم يهاجم دعوة التوحيد ، أو أمراء الدولة السعودية ، وهذه صورة مشرفة للمؤرخ الموضوعي المنصف .

فيسرد عبد الرحمن الجبرتي الإشاعات القائلة بأن آل سعود يمنعون الناس الحج ، فيذكر عام ١٢٢٣هـ : انقطع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي - يقصد أمير آل سعود - الناس الحج ، وليس الأمر كذلك فإنه لم يمنع أحداً أتى إلى الحج على الطريقة المشروعة ، وقد حج طائفة من المغاربة فلم يتعرض لهم بسوء" (٢) .

(١) الجبرتي : المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق : أحداث عام ١٢٢٣هـ .

ويسرد عبد الرحمن الجبرتي مدافعاً عن دعوة التوحيد فيذكر في أحداث ٢٩ صفر ١٢١٨هـ الموافق ٣٠ يونيو ١٨٠٣م : حضر صحبة الحجاج - المصريين العائدين - كثير من أهل مكة هروباً من الوهابي - الأمير السعودي - ولفظ الناس في خبر الوهابي واختلفوا فيه ، فمنهم من يجعله خارجياً وكافراً ، وهم المكيون ومن تابعهم وصدق أقوالهم ومنه من يقول بخلاف ذلك لخلو غرضه ، وأرسل إلى شيخ الركب المغربي كتاباً ومعه أوراق تتضمن دعوته وعقيدته ، وأورد الجبرتي صورة لهذا الكتاب ^(١).

ويبدو من سرديات الجبرتي لأحداث دعوة التوحيد السلفية ، أنها تلقى منه القبول ، وقد دلل على ذلك أيضاً في أحداث يوم ٢ صفر ١٢٢٢هـ - ١١ أبريل ١٨٠٧م ، حين سجل ما يلي : " وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر ، وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم وأن "مسعود" الوهابي " يقصد الأمير سعود بن عبد العزيز أمير الدولة السعودية - وصل مكة بجيش كثيف، وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصري وقال له: ما هذه العويدات والطبول التي معكم ؟ فقال: هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بسبب عاداتهم ، فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام ، وإن أتيت به أحرقتة ، وأنه هدم القباب ، وقبة آدم ، وقباب ينبع والمدينة ، وأبطل شرب التتبك والنارجيلة من الأسواق ، وبين الصفا والمروة ، وكذلك البدع ^(٢).

ويسرد عبد الرحمن الجبرتي حادثة استيلاء الأمير السعودي على ما كان بالحجرة النبوية الشريفة من أموال وجواهر، وأن أهل مكة والمدينة اعتبروا ذلك من الكبائر العظام فيذكر: أن هذه الأشياء أرسلها ووضعها خساف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم ، أو لنوائب الزمان ، فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج إليها ، فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء ، فلما تقادمت عليها الأزمنة ، وتوالت عليها السنين والأعوام الكثيرة - وهي في الزيادة - ارتصدت معنى لا حقيقة ، وارتسم في الأذهان حرمة تناولها ، وأنها صارت مالاً للنبي ρ فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها ، والنبي ρ منزّه عن ذلك ، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا في حياته ^(٣) .

(١) الجبرتي : المرجع السابق نفسه .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

وناقش الجبرتي في سردياته الادعاءات بتكفير السعوديين لأخذهم هذه الذخائر والجواهر والأموال ، واتهامهم بكراهية النبي p ، وعدم محبته فقال : " ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم بتصديقه وإتباع شريعته وسننه ، لا بمخالفة أوامره وكنز المال بحجرتة وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقي الأصناف الثمانية ، وكنز المال بحجرة الرسول p لا ينتفع به أحد إلا ما يختلسه العبيد الخصيون الذين يقال لهم أغاوات الحرم ، والفقراء من أولاد الرسول p وأهل العلم والمحتاجون ، وأبناء السبيل يموتون جوعاً ، وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها إلى أن حضر الوهابي - يقصد الأمير السعودي - واستولى على المدينة ، وأخذ تلك الذخائر" (١) .

(١) عبد الرحمن الجبرتي : المرجع السابق نفسه .

(أهم مصادر البحث)

- (١) عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .
- (٢) عبد الرحمن الجبرتي : مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين ، ٢ جزء ، القاهرة .
- (٣) جمال حمدان : شخصية مصر ، دراسة في عبقرية المكان ، ٤ مجلدات ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- (٤) رأفت الشيخ : تاريخ العرب الحديث ، القاهرة ، ٢٠٠٥ م .
- (٥) رأفت الشيخ : حضارة مصر الحديثة ، القاهرة .
- (٦) رأفت الشيخ : تفسير مسار التاريخ ، القاهرة ٢٠٠٠ م .
- (٧) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي ، سلسلة أقرأ ، دار المعارف المصرية ، القاهرة .
- (٨) إسحاق عبيد : معرفة الماضي من هيرودوت إلى توينبي ، القاهرة ، ١٩٨١ م .
- (٩) حسن عثمان : منهج البحث التاريخي ، القاهرة ، ١٩٧٦ م .
- (١٠) شوقي الجمل : علم التاريخ ، القاهرة ، ١٩٨٢ م .
- (١١) ألبن ج ويدري (مترجم) : التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي ، القاهرة ، ١٩٧٢ م .
- (١٢) أرنولد توينبي ، ترجمة فؤاد شبل : دراسة للتاريخ (مختصر) ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٦ م ، ٤ مجلدات .

(13) Carr, E.H.: What is History, London, 1978.

(14) Arnold Toynbee : Mankind and Mother Earth, London, 1978.
